

## ابوبكر بن العربي

و موقفه من المذاهب الفكرية في عصره

للدكتور حبيب القيسى

في مدينة فاس ، ذات التاريخ الحافل بالبطولات ، و تحت تربتها  
يرقد علم من عمالقة التراث الفكرى للعروبة ، عالم صال و جال في ميدان  
الفكر الاندلسى زمن المرابطين حتى بداية عهد الموحدين ، و ليس ثمة  
دليل على ذلك أوضح من أنه كان يمثل العقلية القضائية الاولى التي  
خدمت الهالكية ، و دافعت عنها دفاعا علميا طبع به القرن الخامس  
الهجرى — الحادى عشر للميلاد — ، حتى انعقدت زعامة هذا المذهب  
له دون منافس .

كانت حياة ابن العربي قصة ، قصة جهاد فكرى انساني ، و نكبة :  
جهاده الفكرى سبسط له خطوطا عريضة ، أما مأساته فلا مندوحة من  
أن نشير اليها اشارة عابرة ، اذ ان كل مصادر التاريخ التي بين أيدينا  
لم تقدم لنا تفسيراً منطقياً للظروف الغامضة التي نسجت خلالها خيوط  
تلك النكبة ، فأدت به الى أن يسجن في مراکش ، عاصمة الموحدين ،  
بعد أن قدم اليها يرأس وفد بلاده — اشبيلية — طالبا العون و مستصرخا  
الموحدين لانقاذ دولة العرب و الاسلام في الاندلس على عهد المرابطين  
حيث تهلمت جوانبها و أصبحت وشيكة الانهيار ، صريعة نقائصها  
الداخلية . و ما سفره الى الموحدين الا مبايعة لهم و اقرار بشرعية  
مبادرتهم للتدخل و انقاذ الكيان العربى الذى بات على شفا الهاوية في

الاندلس . . و بعد أن مكث صاحبنا في السجن سنة كاملة أفرج عنه ، بيد أن الضعف والهزال قد نالا منه ، و مهدت الشيخوخة ، إضافة الى ذلك لان تفيض روحه الطاهرة وهو في طريقه الى فاس على مقربة من— غيلان — و جى به محمولا الى فاس ودفن في تربة القائد مظفر خارج باب المحروق سنة ثلاث و أربعين و خمسمائة للهجرة ، و قد كان ولد في اشبيلية ليلة الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان و ستين و أربعائة للهجرة .

ان من غرائب الصدف أن نعرف أن صاحبنا كان انحى باللائمة في حياته على المؤرخين و حذر الناس مما يكتبون ، و وصفهم بأنهم يشوهون الحقائق و يطمسونها في أغلب الاحيان ، فأفلامهم لم تتجرد من الهوى ، و أكثرهم لم يتوفروا على الامانة العلمية والضمير النير بالموضوعية الواعية . قلت انه لمن غريب الصدف أن تصدق كلمته في هؤلاء المؤرخين بعد أن ختمت حياته بالطريقة التي أشرنا اليها ، فلم نر احدا من المؤرخين قد تجرأ و خدم الحقيقة بتاريخ هذه الحقبة التي كلفت ابن العربي حياته ، و هكذا أسدل ستار الالهال والنسيان على كل ذلك مما جعلنا ، كدارسين ، نفتقر الى الكثير من المعلومات التي تلقى الاضواء على غوامض الظرف السياسى .

و نضال ابن العربي في ميدان الفكر صفحة مشرقة في تاريخ العقلية العربية ، فقد كان عقلية جبارة لها صداها البعيد في أرجاء الاندلس قاطبة و فكرا وثابا خلد أروع الثمرات . فمن فيض تفكيره المتعدد الالوان ، و على ريشته البارعة تفجرت ينابيع ثرة من الحكمة العالية و العبقورية الاصيلة فرسم بذلك مراحل تطور العقلية الاندلسية شكلا و روحا على صفحات أسفار جلييلة ، نصيبنا منها الآن النزر اليسير ، والاشارات المتزاحمة الى معظمها في كتب التراجم .

مترجمنا هو أبو بكر محمد بن عبدالله بن أحمد بن العربي المعافري  
 الاشبيلي الأندلسي الهالكي . و للتفريق بينه وبين محي الدين الحاتمي الطائي  
 المرسى المتصوف سمى صاحبنا بابن العربي (بالالف واللام) بينما سمى  
 محي الدين المرسى بابن عربي (بدون ألف ولام) . ولكن هذا التفريق —  
 للامس الشديد — غاب عن بعض المجليين في ميدان الاستشراق مثل  
 بروكلمان<sup>١</sup> .

كان أبوه من فقهاء اشبيلية ذا مكانة و رياسة و مقربا لدى ملوكها  
 بني عباد ، اذ بوأوه المراتب العالية ، و لما دالت دولتهم خرج الى  
 الحج مع ابنه (القاضي أبي بكر) يوم الاحد مستهل ربيع الاول سنة خمس  
 وثمانين و أربعمائة للهجرة ، و بعد أن مكث في المشرق بضع عشرة سنة  
 توفي بالاسكندرية أول سنة ثلاث و تسعين و أربعمائة .

أما هو ، فقد نشأ في كنف أبيه فأرضعه اخلاف الادب ، و احضره  
 مجالس العلم فتأدب و تعلم القراءات ، و سمع من أبيه و خاله أبي القاسم  
 الحسن الهوزني ، و استكمل جوانب شخصيته العلمية بعد رحلته الى  
 المشرق مع أبيه ، و في سن مبكرة ، اذ قال هو عن نفسه :

”حذقت القرآن ابن تسع سنين ، ثم ثلاثا لضبط القرآن والعربية  
 والحساب ، فبلغت ست عشرة ، و قد قرأت من الاحرف نحو من عشرة  
 بما يتبعها من اظهار و ادغام و نحوه ، و تمرنت في الغريب والشعر  
 واللغة ثم رحل بي أبي الى المشرق<sup>٢</sup> .“

١- راجع معجم بروكلمان ، حيث يشير الى مؤلفات ابن العربي تحت  
 اسم المتصوف ابن عربي مما يدل على أنه لم ينتبه الى أن هناك فرقا  
 بين الاثنين .

٢- العواصم من القواصم — الجزء الاول — تحقيق الشيخ عبد الحميد  
 ابن باديس .

لها دالت دولة بنى عباد سنة ٤٨٥ هـ غادر أبي العربي الأب يصحبه ابنه اشبيلية متجها صوب المشرق يوم الاحد مستهل ربيع الاول عن طريق شالي افريقيا ، فكان أول نزولهم في ثغر النشى منذ سنين قليلة على ساحل بلاد الجزائر وهو ثغر - بجاية - ، و نزل ابن العربي مع والده وأسرتهم في هذا الثغر ولبشوا فيه مدة تتلمذ فيها ابن العربي على كبير علماء هذا البلد أبي عبدالله الكلاعى . . وكان سفر أبي العربي هذا وهو فى السابعة عشرة من عمره ، و يحدثنا صاحب المطمح عن ذلك بقوله : ”و أبو بكر اذ ذاك فى ثرى الذكاء قضيب مادوح ، و فى روض الشباب زهر ماصوح ، فالزمه مجالس العام رائحا و غاديا ، و لازمه سائقا اليها و حاديا ، حتى استقرت به مجالسه و أطردت له مة ييسه ، فجد فى طلبه و استجد به أبوه متمزق اربه ، و بقى أبو بكر متفردا ، و للطلب متجردا ، حتى أصبح فى العلم وحيدا ، ولم تجد عنه الرياسة محيدا“ .

و بعد أن غادر ابن العربي وركبه بجاية شرقا سبحرين الى ثغر - المهديّة - ، و فيها أخذ عن عالمها ابن الحسن على بن محمد بن ثابت الحداد الخولانى المقرئ ، و هو الذى أشار اليه ابن العربي بقوله : ”فكنت أحضر عليه كتابه المسمى بالاشارة و شرحها و غيرها من تأليفه و كان ذلك بالمهدبة فى شهور سنة ٤٨٥ هـ“ . و تتلمذ كذلك فى المهديّة على الامام على أبي عبدالله محمد بن على الهازرى التميمى ٤٥٣ - ٥٣٦ هـ . و فى طريقهم الى السواحل المصرية تعرض ابن العربي وعائلته الى محنة ، اذ هاج البحر عليهم و عرضهم الى الخطر لولا رحمة الله ، و قد صور لنا ابن العربي هذه النكبة بقلمه عندما ألف تفسيره (قانون التأويل) الذى نقل عنه العلامة ابن غازى فى كتاب (التكميل) والرهونى فى حاشيته على رسالة خليل ، والشيخ مخلوف فى طبقات الهالكية (١: ١٣٧) والمقرئ فى نفح الطيب (١: ٣٣٧) ، وازهار الرياض (٣: ٨٩) وغيرهم . أقول صور ابن العربي نفسه هذه المحنة بقوله : و قد سبق فى علم الله

ان يعظم علينا البحر بزوله<sup>١</sup> و يغرقنا في هوله . فخرجنا من البحر ،  
 خروج الميت من القبر . وانتهينا بعد خطب طويل — الى بيوت  
 بنى كعب ابن سليم — ونحن من السغب على عطب . ومن العرى في أبيع  
 زى . وقد قذف البحر زقاق زيت مزقت الحجارة منيئتها<sup>٢</sup> و دسمت  
 الادهان وبرها و جلدتها . فاحترمناها ازرا ، واشتملناها لفعنا<sup>٣</sup> ، تمجنا  
 الابصار ، وتخذلنا الانصار . فعطف أميرهم علينا ، فأوينا اليه فأرانا  
 و أطعمنا الله على يديه و سقانا و أكرم مشوانا . و كسانا بامر  
 حقير ضعيف ، و فن من العلم ظريف . و شرحه أنا لما وقفنا على بابهِ  
 الفيئاه يدير أعواد الشباه<sup>٤</sup> ، فعل السامد اللاه . فدنوت منه في تلك  
 الاطار ، وسمح لي بياذته<sup>٥</sup> ، اذ كنت من الصغر في حد يسمح فيه  
 للاعمار ، و وقفت بازائهم انظر الى تصرفهم من ورائهم ، اذ كان علق  
 بنفسى بعض ذلك من بعض القرابة في خلس بطالة ، مع غلبة الصبوة  
 والجهالة . فقلت للباذقة : الامير أعلم من صاحبه . فلمحونى شزرا ،  
 وعظمت في عيونهم بعد أن كنت نزرا . و تقدم الى الامير من نقل اليه  
 الكلام . فاستدنانى ، فدنوت منه و سألتنى هل لي بما هم فيه بصر ؟  
 فقلت : لى فيه بعض نظر ، سيبدو لك و يظهر ، حرك تلك القطعة  
 ففعلت و عارضه صاحبه ، فأمرته ان يحرك أخرى ، وما زالت الحركات  
 بينهم تترى ، حتى هزمهم الامير ، وانقطع التدبير فقالوا : ما انت  
 بصغير .

١- الزول : العجب .

٢- منيئتها : جلدها .

٣- لفعنا : مايتلف به ، أى يلتحف به .

٤- أى يلعب الشطرنج .

٥- ياذته : اتباعه و حرسه .

وكان في اثناء تلك الحركات قد ترنم ابن عم الامير منشدا :

و أحلى الهوى ما شكك في الوصل ربه  
وفي الهجر ، فهو الدهر يرجو و يتقى

فقال : لعن الله أبا الطيب أو يشك الرب ؟

فقلت له في الحال : ليس كما ظن صاحبك أيها الامير ! انما  
أراد بالرب هنا الصاحب . يقول : ألد الهوى ما كان المحب فيه من  
الوصال . و بلوغ الغرض من الآمال ، على ريب . فهو في وقته كله  
على رجاء لها يؤمله ، و ثقة لها يقطع به ، كما قال :

إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا  
فأين حلوات الرسائل و الكتب

و أخذنا نضيف الى ذلك من الاغراض ، في طرفي الابرام  
والانتقاض ، ما حرك منهم الى جهتي داعي الانتهاض . و أقبلوا يتعجبون  
منى ، ويسألونني كم سنى ؟ و يكشفونني عنى . فبقدت لهم حديثى ،  
و ذكرت لهم نجيشى ' . و أعلمت الامير بأن أبى معى ، فاستدعاه ،  
و قمنا الثلاثة الى مشواه ، فخالع علينا خالعه ، و أسبل علينا أدمعه . و جاء  
كل خوان بأفنان الالوان . فانظر الى هذا العلم الذى هو الى الجهل  
أقرب ، مع تلك الصباية اليسيرة من الادب ، كيف انقذنا من العطب .  
و هذا الذى يرشدكم ان غفلتم — الى الطلب . و سرنا حتى انتهينا الى  
ديار مصر . انتهى كلام ابن العربى .

لا أريد أن أقف عند هذا الكلام طويلا الا أن شيئا واحدا تجدر  
الاشارة اليه وهو ما تطفح به هذه القطعة من عبقرية و نبوغ فى الادب

وفن الكلام وحسن التصرف ما يجعلنا نعجب أيما إعجاب بابن العربي الحديث .

نسرع الآن متابعين رحلة ابن العربي فنقول : انه لم يلبث طويلا هو ووالده لدى امير قبيلة بني كعب بن سليم ، فتوجهها قاصدين الديار المصرية التي كان يحكمها آنذاك سنة ٤٨٥ هـ ، ألمستنصر ابو تميم معد ، وكان علماء اهل السنة قليلى الظهور ، فاضطر ابن العربي الى ان يجتمع باستاذة القاضى أبى الحسين على بن الحسين بن محمد الخلعى الموصلى الاصل المصرى المولد الشافعى ليسمع عنه ٤٠٥ - ٤٩٢ هـ عند القرافة الصغرى قريبا من قبر الامام محمد بن ادريس الشافعى . وكان من اشياخ ابن العربي فى مصر ايضا الذين أخذ عنهم أبو الحسن بن شرف ، ومهدى الوراق ، وأبو الحسن بن داؤد الفارسى .

و بعد ذلك واصل ابن العربي و والده السفر الى بيت المقدس ، و كان فيها الامام أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى الفهرى ٤٥١ - ٥٥٢ هـ . من كبار علماء المالكية الاندلسيين ، فأخذ عنه ابن العربي كثيرا ، اذ يقول كما يذكر المقرئ فى نفح الطيب ( ١ : ٣٤١ ) : تذاكرت بالمسجد الاقصى مع شيخنا أبى بكر القهرى الطرطوشى حديث أبى ثعلبة المرفوع . ان من ورائكم اياما للعامل فيها أجر خمسين منكم ، فقالوا : (منهم) . فقال بل (منكم) (أى من الصحابة) لانكم تجدون على الخير أعوانا ، و هم لا يجدون عليه أعوانا . و تفاوضنا كيف يكون أجر من يأتى من الامة اضعاف أجر الصحابة مع انهم قد أسسوا الاسلام ، و عضدوا الدين و اقاموا المنار ، و اقتحموا الامصار ، و حموا البيضة ، و مهدوا الملة ، و قد قال صلى الله عليه وسلم فى الصحيح : ”لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه“ ، فتراجعنا القول ، و تحصل ما أوضحناه فى شرح الصحيح (أى فى كتاب النيرين ، فى الصحيحين لابن العربي)

و خلاصته : ان الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد ولا يدانيهم فيها بشر ، و أعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها في الاجر من أخلص اخلاصهم ، و خلصها من شوائب البدع والرياء بعدهم . والامر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والاسلام ، و هو ايضا انتهاؤه . . حتى اذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف ، و باع نفسه في الدعاء اليه ، كان نه من الاجر اضعاف ما كان لمن كان متمكنا منه معانا عليه بكثرة الدعاء الى الله . . الخ .

ويحدثنا ابن العربي في بيت المقدس انه كان قد التقى بابن الكازروني و توغل في ربوع فلسطين و شرق الاردن ، يذكر صاحب نفح الطيب ( ١ : ٣٤٠ ) قوله أى قول ابن العربي : شاهدت الهائدة بطور زيتا مرارا ، و أكلت عليها ليلا و نهارا ، و ذكرت الله سبحانه فيها سرا و جهارا . . و كانت صخرة صلدا ، لا تؤثر فيها المعاول ، و كان الناس يقولون : مسخت صخرة . . و الذى عندى انها صخرة في الاصل و قطعت من الارض محلا للهائدة النازلة من السماء . و كل ما حولها حجارة مثلها . و كان ما حولها محفوفًا بقصور نحتت في ذلك الحجر الصلد ، بيوت أبوابها منها و مجالسها منها مقطوعة فيها . . و قد كنت أدخلو فيها كثيرا للدرس . . الخ .

و يرى الشيخ محب الدين في كتابه ( اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب ص ٢٥ ) : انه أى ابن العربي كان يتحدث بذلك عن وادى موسى و حصن سلع الذى سماه الرومانيون بترا - و أرى انه كان يقصد طور سينا .

نتابع جولة ابن العربي العلمية في الامصار الاسلامية فنرى انه يصل الديار الشامية و يقيم في دمشق ، و يختلف الى مجالسها العلمية ، و يأخذ عن شيوخها و علمائها ، و منهم شيخ الشافعية الحافظ المتمثل



أبو الفتح نصر بن ابراهيم المقدسى ٤٠٩-٤٩٠ هـ الذى ترجم له الحافظ ابن عساكر فى تاريخ دمشق (حرف النون) ، وله ترجمة فى طبقات الشافعية (٤ : ٢٧) و شذرات الذهب (٤ : ٢٧) ، و شذرات الذهب (٣ : ٣٩٥-٣٩٦) و أخذ كذلك عن الحافظ ابى محمد هبة الله بن احمد الاكفانى الانصارى الدمشقى ٤٤٤-٥٢٤ هـ المترجم (بحرف الهاء) من تاريخ دمشق ، و شذرات الذهب (٤ : ٧٣) ، و عن أبى الفضل احمد بن على بن الفرات المتوفى سنة ٤٩٤ هـ و هو من علماء الشيعة . و لقى فى الديار الشامية من علمائها كذلك ابا سعيد الرهاوى و ابا القاسم أبى الحسن القدسى ، و ابا سعيد الزنجباني .

ذكر لنا ابن العربى عن عمران دمشق فى زمنه ورفاهية العيش والنعيم فيها كما ورد فى نفح الطيب (١ : ٣٣٨) نقلا عنه و هو انه دعى لتناول الطعام فى بيوت بعض الاكابر ، فرأى نهرا جاريا الى موضع جلوسهم ثم يعود الى ناحية أخرى . قال : فلم أفهم معنى ذلك ، حتى جاءت موائد الطعام فى النهر المقبل الينا ، فأخذها الخدم و وضعوها بين أيدينا ، فلما فرغنا لقي الخدم الاوانى و ما معها فى النهر الراجع فذهب بها الهاء الى ناحية الحريم من غير ان يقرب الخدم من تلك الناحية . فعلمت السر ، وان هذا لعجيب .

و من الشام الفيحاء الى بغداد ، دارالسلام اتجه أبوبكر مع أبيه ، و كان الخليفة العباسى فى السنتين الاوليين من وصوله المقتدى بالله الذى اتصف عمده بالاستقرار والازدهار ، ولما بويغ بعده للمستظهر بالله أحمد كثر الاضطراب ، و فى هذا الجو أخذ ابن العربى فى توسيع ثقافته و تلقى العلوم عن أهلها حتى برع فى علوم السنة و تراجم الرواة و أصول الدين و أصول الفقه و علوم العربية والاداب .

و كان من اشياخ ابن العربى الذين درس عليهم و أخذ منهم :

أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي المعروف بابن الطيوري  
 ٤١١ - ٥٠٠ هـ المحدث الصحيح الاصول الواسع العلم . و أبو الحسن  
 علي بن الحسين بن علي بن أيوب البزاز . ٤١٠ - ٤٩٢ هـ . و أبو المعالي  
 ثابت بن بشار البقال المقرئ - المتوفى سنة ٤٩٨ هـ . والقاضي  
 أبو البركات طلحة بن أحمد بن طلحة العاقولي الحنبلي ٤٣٢ - ٥١٢ هـ ،  
 و فخر الاسلام أبو بكر محمد بن أحمد ابن الحسين بن عمر الشاشي  
 الشافعي ٤٢٩ - ٥٠٧ هـ الذي انتهت رئاسة الشافعية في بغداد ،  
 و يقال انه أنشد في أحد دروسه :

خلت الديار فسدت غير مسود ومن العناء تفردى بالسؤدد  
 ثم وضع المنديل على عينيه و جعل يبكي .

و من الطرائف الادبية والعلمية هنا ما يحدثنا به ابن العري عن  
 امام الشافعية هذا ذاكرة محامنه انه سمعه ينتصر لمذهب أبي حنيفة  
 في مجلس النظر و يقول : "يقال في اللغة : لا تقرب كذا - بفتح الراء -  
 أي لا تتلبس بالفعل . و اذا كان يضم الراء كان معناه لا تدن من  
 الموضوع قلت و هذا من دلائل صحة العلم و سعة الافق ، فان العالم  
 لا ينضج حتى يترفع عن العصبية المذهبية ويمنح الى الحق والخير حيثما  
 كانا و من كان الحق غرضه فرآه واحتج له كان معه في كل حال ، أما  
 التعصب للطائفة والمذهب و تمحل الحجج الواهية لذلك ، فمن دلائل  
 صغر النفس و زغل العلم والانس الباطل " .

١- تأثر بالاعتزال من شيوخه أبي علي محمد بن أحمد بن الوليد الكرخي ،  
 و أبي القاسم بن التبان . ولكن شيوخه من أئمة الحنابلة استتابوه بعد ذلك و  
 صرفوه عن كثير مما تأثر به . و أبو الوفا بن عقيل من كبار أئمة الاسلام .  
 و من مؤلفاته "الفنون" زاد على اربعائة مجلد - تعليق الشيخ محب الدين  
 الخطيب .

وهذه النكبة البليغة تدل بوضوح على نضج ثقافة ابن العربي و سلامة مناهجه في البحث العلمي والنظر السديد في أمور الدين و الدنيا كما سيأتي بناء ذكره بعد قليل .

و من أساتذة ابن العربي في بغداد الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون بن مرجا الميورفي العبدي المتوفى سنة ٥٢٤ هـ و هو من فقهاء مذهب داؤد الظاهري ، ذكر عنه ابن العربي ( و هو من أنبل من لقيته ) . وأخذ كذلك عن أبي الحسين احمد بن عبدالقادر اليوسفي ٤١١ - ٤٩٢ هـ ، وأخذ عن شيخ بغداد في الادب أي زكريا يحيى بن علي التبريزي ٤٢١-٥٠٢ هـ و عن أي محمد جعفر بن احمد بن حسين السراج الحنبلي ٤١٦-٥٠٠ هـ ، مؤلف كتاب مصارع العشاق و عن أبي بكر محمد بن طرخان التركي الشافعي ٤٤٦-٥١٣ هـ وهو تلميذ امام الشافعية ابي اسحاق الشيرازي صاحب التنبية و المذهب و أخذ عن مسند العراق نقيب النقباء أبي الفوارس طراد بن محمد بن علي العباسي الزينبي ٣٩٨-٤٩١ هـ و كان يتمتع بمنزلة عليا لدى الخليفة .

و في خلال اقامته في بغداد تردد ابن العربي على مجالس العلم العامة التي كانت تعقد في دار وزير الخليفة عميد الدولة ابي منصور محمد بن فخر الدولة محمد بن محمد بن جهر المتوفى سنة ٤٩٣ هـ و ساء "الوزير العادل" . قال ابن العربي : كنت بمجلس الوزير فقرأ القارى "تحيتهم يوم يلقونه سلام" و كنت في الصف الثاني من الحلقة بظهر أبي الوفا بن عقيل امام الحنابلة بمدينة السلام ٤٣١-٥١٣ هـ ، وكان (مع امامته في مذهب الامام احمد) معتزلي الاصول ، فلما سمعت الآية قلت لصاحب لي كان يجلس على يساري : هذه الآية دليل على رؤية الله في الآخرة ، فان العرب لا تقول : لقيت فلانا ، الا اذا رآته . فصرف أبو الوفاء وجهه مسرعا اليها و قال ينتصر لمذهب الاعتزال في ان الله لا يرى في الآخرة ، فقد قال الله تعالى : "فاعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه" و عندك

أن المنافقين لا يرون الله تعالى في الآخرة ، قال ابن العربي : وقد شرحنا وجه الآية في كتاب المشككين .

و مما تجدر الاشارة اليه ان ابابكر بن العربي التقى في بغداد بمحمد بن عبدالله بن تومرت المصمودى المتوفى سنة ٥٢٤ هـ الذى ادعى بعد ذلك المهديوية والنسب العلوى و قام بالتوطئة لعبدالله بن على ٤٩٠-٥٥٨ هـ و كان المؤسس الاول لدولة الموحدين و يذكر المقرئ في نفح الطيب ( ١ : ٣٣٥ ) ابن العربي انه صحب ابن تومرت بالمشرق فاوصى عليه عبدالموعمن . ولكن هذه الوصاية لم يفد منها ، و لم يكن لها أى أثر فى حياته بل بالعكس رأينا أن نكبته التى حلت به كانت فى دار سلطنة عبد المؤمن فى مراکش على النحو الذى قدمناه فى بداية الحديث عن ابن العربي .

و هنا لابد من الاشارة الى نقطة اغفلتها كل المصادر التاريخية فى سفرة ابن العربي مع والده الى المشرق ، فقد يبدو معقولا جدا ان يكون سفر والد ابن العربي الى المشرق ذا غاية سياسية فى الاساس و هذا ما اعنى فى الوقت الحاضر ببحثه عنى أوفق الى الوقوف على أمر جديد عن الناحية السياسية فى الاندلس فى نهاية عصر ملوك الطوائف . . و مما دفعنى الى ذلك اكتشاف بعض الوثائق التاريخية الجديدة التى لها علاقة بوالد أبى بكر بن العربي والتى تبعث على التأمل ، فقد اخبرنى الاستاذ الدكتور العبادى بعثوره على رسالة على جانب من الاهمية كان قد بعثها الغزالي بيد ابن العربي الاب الى يوسف بن تاشفين المرابطى ، و لعل فيها أمرا مها يوضح لنا جوانب علمية دينية فضلا عن الناحية السياسية .

ان هناك ناحية مهمة فى حياة ابن العربي الا و هى اتصاله بحجة الاسلام أبى حامد الغزالي ٤٠٤-٥٠٥ هـ فى بغداد ، و فى الشام بعد ذلك .

يذكر العلامة الاستاذ محمد رضا الشيبى في "ادب المغاربة والاندلسيين" (ص ٦٧) في معرض حديثه عن ابن العربي: انه انتظم في طلاب أشهر جامعة علمية انشئت في بغداد هي المدرسة النظامية وكان أساتذتها من الاعلام المتصلعين في العلوم والفنون الاسلامية.. والذي لا يحتاج الى تأكيد هو ان ألمع أستاذ من أستاذة النظامية هو الغزالي. والراجع هو ان ابن العربي عندما وصل الى بغداد في بداية رحلته - وكان الغزالي يدرس في النظامية وفي مجالسه العامة - اكتفى بالسماع منه في غمار الناس. ثم حج الغزالي ورحل في سنة ٤٨٨هـ الى دمشق متزهداً و ألف فيها كتاب "الاحياء"، وعاد الى بغداد فنزل برباط أبي سعد بازاء النظامية، وحينئذ اتصل به ابن العربي ولازمه. وبعد ان حج ابن العربي، وعاد من العراق الى الشام في طريقه الى وطنه لقي الغزالي في صحارى الشام وهو في طور آخر.

ويحدد لنا كل من المقرئ وابن العباد في نفتح الطيب و ازهار الرياض و شذرات الذهب علاقة ابن العربي بالغزالي - .

يقول المقرئ في نفتح الطيب (١ : ٣٣٨) وفي ازهار الرياض (٣ : ٩١) عن "قانون التأويل"، لابن العربي قال: ورد علينا دانشمند - يعنى الغزالي - فنزل برباط ابن سعد بازاء المدرسة النظامية معرضاً عن الدنيا، مقبلاً على الله تعالى، فمشيتنا اليه، وعرضنا أمنيئتنا عليه وقلت له: انت ضالتنا التي كنا نمشدها، وامامنا الذي به نسترشده. فلقينا لقاء المعرفة، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة... الخ.

و يقول المقرئ ايضاً في نفتح الطيب (١ : ٣٤٣) عن ابن العربي انه قال: وكان يقرأ معنا برباط أبي سعد على الامام دانشمند من بلاد المغرب خنثى له لحية، وله ثديان وعنده جارية، فربك أعلم به. ومع طول الصحبة عقلنى الخياء عن سؤاله، وبودى اليوم لو كاشفته حاله.

و يقول ابن العماد في شذرات الذهب (٤ : ١٣) قال : و ذكر الشيخ علاء الدين علي بن الصيرفي في كتابه زاد الساكنين : ان القاضي أبابكر بن العربي قال : رأيت الغزالي في البرية و بيده عكازة و عليه مرقعة و على عاتقه ركوة ، و قد كنت رأيته في بغداد يحضر دروسه اربعمائة عمامة من اكابر الناس و افاضلهم يأخذون عنه العلم . فدنوت منه فسلمت عليه و قلت له : يا إمام ، أليس تدريس العلم ببغداد خيرا من هذا ؟ فنظر الى شزرا و قال : لما طلع بدر السعادة في فلک الارادة او قال ”في سماء الارادة“ و جنحت شمس الوصول ، في مغارب الاصول :

تركت هوى ليلى و سعدى بمنزل  
و عدت الى تصحيح أول منزل  
و نادت بي الاشواق : مهلا فهذه  
منازل من تهوى ، رويدك فانزل  
غزلت لهم غزلا دقيقا : فلم أجد  
لغزلي نساجا ، فكسرت مغزلي

هذا و يذكر المقرئ في ازهار الرياض (٣ : ٩١) نقلا عن أبي عبدالله محمد بن عازي من علماء المغرب ان من شيوخ ابن العربي في بغداد دانشمند اخر كانوا يسمونه ”دانشمند الاكبر“ و هو اسماعيل الطوسي و يقولون للغزالي ”دانشمند الاصغر“ و معنى دانشمند بالفارسية هو ”العارف“ .

ذهب أبوبكر بن العربي من بغداد الى الحرمين الشريفين في موسم سنة ٤٩٨ هـ فحج بيت الله الحرام ، و أخذ في مكة عن محدثها و مفتيها أبي عبدالله الحسين بن علي بن الحسين الطبري الشافعي ٤١٨ - ٤٩٨ هـ ، و ذكر ابن العربي عن مكة : كنت بمكة مقبلا في ذى الجعدة سنة ٤٩٨ هـ ، و كنت أشرب من ماء زمزم كثيرا ، و كلما شربته نويت

به العلم والايمان ، ففتح الله لى ببركته فى المقدار الذى يسره لى من العلم ، و نسيت ان أشربه للعمل ، و ياليتنى شربته لها ، حتى يفتح الله لى فيها ، و لم يقدر ، فكان صفوى للعلم اكثر منه للعمل . و أسأل الله تعالى الحفظ و التوفيق برحمة :

وما لبث ان رجع ابن العربى من مكة الى بغداد مرة أخرى و لبث فيها مع أبيه قرابة السنين قضاهما فى صحبة الغزالى فى المرحلة الوسطى من حياته التى توسطت مرحلتى ظهوره و عزلته . و بعد ذلك شد ابن العربى الرحال للرجوع الى بلده سنة ٥٤٩٣ هـ ، و كان أبوه قد أثرت فيه الشيخوخة فخرجا من بغداد متوجهين الى الشام و فلسطين ، حتى وصلا الى الاسكندرية حيث كانت منية ابيه فى اوائل سنة ٥٤٩٣ هـ فدفن فى ثغر الاسكندرية ، و كان لا بد لابن العربى من ان يغادر الاسكندرية عائدا فى تلك السنة الى وطنه . و يذكر الحافظ ابن عساكر ان ابن العربى ابتداء بتأليف كتابه "عارضة الاحوذى" عند ما غادر الاسكندرية مغربا نحو الاندلس فكان اول مؤلفاته . يتبع

